خطبة صلاة الجمعة 16/ 1/ 2025 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(قيم إنسانية – تحمل المسؤولية)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» وفي رواية البزار: «مَكَارِمِ الأخلاق».

أيها الإخوة:

هذه مجموعة من الخطب تتحدث عن قيم إنسانية.

القيم هي المبادئ والمثل العليا التي يؤمن بها الناس، ويجعلونها ميزانًا يزنون به أقوالهم وأعمالهم.

وإنما سميت القيم قيماً لأن بها قِوامَ الإنسان والحياةِ الكريمة.

وإنا سميت القيم قيماً لأن الأقوال والأفعال والأشياء بها تُقَوَّم وتوزن.

وإنما سميت القيم قيماً لأنها مستقيمة لا تنحرف ومنه قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: مستقيماً.

وإنما سميت القيم قيماً لأنها الحارسة للفطرة والراعية لإنسانية الإنسان ومنه قولنا قَيِّم المسجد. أي راعيه وحارسه.

فالقيم بها تقوم الحياة الكريمة، وبها تُقَوَّمُ الأقوال والأفعال وتوزن، وهي الحارسة للفطرة الراعية لإنسانية الإنسان، وهي المستقيمة التي لا تنحرف.

ونحن بعد أن أكرمنا الله تعالى بالفتح أحوج ما نكون لتعزيز القيمِ النبيلة، وهذه مجموعة من الخطب تعرض كل منها لقيمةٍ إنسانيةٍ، لا تظهر إنسانية الإنسان إلا بها، ولا تستقيم علاقاتنا الاجتماعية إلا بها، ولا تقوم لنا قائمة إلا بها.

تحدثت خطب ماضية عن الاحترام وعن العلم وكانت خطبة الأسبوع الماضي عن العمل.

عنوان خطبة اليوم: **قيم إنسانية**

– تحمل المسؤولية–

أيها الإخوة:

تحمل المسؤولية مما يتميز به الإنسان عن سواه من المخلوقات قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

قال كثير من المفسرين إن المراد بالأمانة تقلّدُ عُهْدَةِ التَّكْلِيف – أي تحمل المسؤولية– بِأَن تتعرض لخطر الثَّوَاب وَالْعِقَاب بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَة، ودلَّ القرآن بحمل الْإِنْسَان للأمانة أنه قابلٌ ومستعدٌ لتحمل هذه المسؤولية.

قال ولي الله الدهلوي: "وقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ خرج مخرج التَّعْلِيل؛ فَإِن الظلوم من لَا يكون عادلاً، وَمن شَأْنه أَن يعدل، والجهول من لَا يكون عَالماً، وَمن شَأْنه أَن يعلم، وَغير الْآدَمِيّ إِمَّا عَالم عَادل لَا يتَطَرَّق إِلَيْهِ الظُّلم وَالْجهل كالملائكة، وَإِمَّا لَيْسَ بعادل وَلَا عَالم وَلَا من شَأْنه أَن يكسبها كَالْبَهَائِمِ، وَإِنَّمَا يَلِيق بالتكليف، ويستعد لَهُ من كَانَ لَهُ كَمَال بِالْقُوَّةِ لَا بِالْفِعْلِ".

تحمُّلُ المسؤولية أساسُ بناءِ المجتمعات وتقدمِ الدول، فالفرد المتحمل لمسؤولياته يساهم في تحسين جودة الحياة لنفسه وللآخرين أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت الرسول ﷺ يقول: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته؛ الإمام راعٍ ومسئولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئولٌ عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئولٌ عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيته**».

تحمل المسؤولية يعني قيامَ الفرد بما يمليه عليه الواجب تجاه نفسه وأهله ومجتمعه وعالمه، وأن يكون مستعداً لتحمل تبعات أقواله وأفعاله. ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

من صور المسؤولية:

مسؤولية الرجل في بيته بالنفقة والقوامة، ومسؤولية المرأة في بيت زوجها بطاعته وحفظ بيته، ومسؤولية المعلم بإحاطة طلابه بالحفظ والتربية والتعليم، ومسؤولية رجال الإعلام بتقديم النافع للناس، ومسؤولية الإمام تجاه الرعية بإحاطتهم بعنايته ورحمته وبره، ومسؤولية الرعية تجاه الإمام بطاعته ولزوم أمره، ومسؤولية الدعاة بنشر الخير وغرس البر، ومسؤولية العامل في الوظائف العامة والخاصة بحفظ مصالح الخلق ومراقبة الخالق، ومسؤولية التكاليف الشرعية بأداء الفرائض والمندوبات وترك المحرمات، ومسؤولية كل مواطن في حفظ أمن بلده والذود عنه.

ومن صور التخلي عن المسؤولية:

- اختلاط الأدوار بين النساء والرجال: فتجد المرأة تخرج باكرة لتعمل وتكدح، وزوجها أو أخوها يتوسد الكسل واللامبالاة.

- التردي الأكاديمي: وفيه نقرأ تقصير عدد من دكاترة الجامعات عن مسؤولياتهم التعليمية والتربوية وتقصير عدد من الطلبة عن مسؤولياتهم التحصيلية.

- ارتفاع نسب الطلاق: وفيه مؤشر على التقصير في التأهيل لتحمل المسؤوليات الزوجية.

- المخدرات: وهي من أبرز مظاهر التخلي عن المسؤولية، إذ يعتقد متناولها أن أنجع وسيلة لحل المشكلات هي الهرب منها إلى عالم المجهول.

أخرج الإمام البخاري عن أنس ﷺ، قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قِبَلَ الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول: «لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا» وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: "لقد وجدته بحراً، أو: إنه لبحر".

لقد وجد رسول الله ﷺ نفسه مسؤولاً عن حماية أبناء بلده وإبعاد الأذى عنهم فانطلق مسرعاً ليدفع المفزع عنهم، ويعود ليطمئنهم أن لا شيء يستدعي الخوف والرَّوع.

مات زوجها وهي ابنة ثلاثين عاماً، وترك لها ثلاث بنات وثلاثة أبناء أكبرهم في الثانية عشرة، وترك لهم الدار التي يسكنونها ومحلاً مؤجراً بأجرة بسيطة وتعويضَ الوظيفة العامة، ومع أنها كانت شديدة الجمال وقد خطبها من خطبها ولكنها أبت إلا أن تحمل مسؤولية هذه الأسرة المادية والتربوية وتتفرغ لها، فكانت تعمل في الخياطة لتعيلهم وتسهر على تربيتهم لتعلي شأنهم، الآن وقد تخرج ابنها الأول طبيباً والثاني

مهندســـاً والثالث تاجراً، وقد زوجت البنات الثلاثة زيجاتٍ كريمات، تقول لمن حولها إنها تعتقد أنها أدت الأمانة وحملت المسؤولية أفضل الممكن.

أخرج أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا وامرأةٌ سَفْعاءُ الخَدَّينِ كهاتينِ يومَ القيامَةِ**» -وأومأ يزيدُ بالوسطى والسَّبَّابةِ- «**امرأةٌ آمَت من زوجِها ذاتُ منصِبٍ وجمالٍ، حبَسَت نفسَها على يتاماها حتى بانُوا أو ماتُوا**».

أرسلت أم خالد ابنها الصغير ليشتري لها اللبن الرائب من عند البقالة، وبينا كان عائداً إلى المنزل زلَّت قدمه على درج البناء فانسكب شيء من اللبن على الدرج، وصل الابن إلى البيت باكياً وأعلم أمه الأمر، فنزلت معه ليمسحا درج البناء الذي اتسخ بفعلهم،

تعلمه تحمل المسؤولية.

بينما رجل يرجع بسيارته القهقرى صدم صدمة خفيفة سيارة مركونة على طرف الطريق، نزل من سيارته ووضع بطاقة على نافذة السيارة المصدومة فيها اسمه ورقم هاتفه وطلب من صاحبها الاتصال وأنه مستعد لتحمل كامل التكاليف المترتبة على فعلته.

لما عاد صاحب السيارة المصدومة ورأى الصدمة ورأى البطاقة اتصل بالرقم ليشكر الرجل على تحمله المسؤولية وعلى وضعه البطاقة، ولم يرضَ أن يأخذ منه شيئاً.

أيها الإخوة:

صرح جون كنيدي: "بأن مستقبل أمريكا في خطر؛ لأن شبابها منحل غارق في الشهوات، لا يقدّر المسؤولية الملقاة على عاتقه، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين؛ لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية".

إن تحمل المسؤولية قيمة إنسانية وهي سِرُّ الحياة وعنوان التقدم، وثمن الاستخلاف في الأرض.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ توجيهات قرآنية تدعونا جميعاً لتحمل المسؤولية. فليجتهد كلٌّ منا أن يؤدي ما عليه من الواجبات، وأن يسأل الله العون على الملمات، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين